(لا يرسل إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، وتلك إشارة نلوح بها لمن لا يكفيهم المنطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبي قوماً بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم ، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد إلى الإغراب فى الألفاظ والتعابير ، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان . . . وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم ، ووصل إلى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحاً ويقيناً ، واستثار الدفائن من صدور المشركين ، فأعلنوا مافى قلوبهم من غيظ ومافي رءوسهم من عناد . أفكان شيء من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية » . ويعود الكاتب بعد ذلك فيقول : « ولنقيد هنا أن القرآن فى بلاغته إنما كان يخاطب قوماً يفهمونه ويتذوقونه . وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن أن يقع اتفاقاً وبلا استعداد . . . »[1] .

وهنا نجد أنفسنا أمام ثلاث نقاط يراد بها الدلالة على جاهلية النثر القرآنى ، النقطة الأولى تتصل بأساليب الجاهليين وطرق تعبيرهم ، والنقطة الثانية تتصل بفهم الجاهليين للقرآن وتذوقهم لأسلوبه وهو الذى جاء لهدايتهم ومخاطبتهم بما يفهمون . أما النقطة الثالثة فتتصل بتصوير القرآن للحياة الجاهلية وتعبيره عن تقاليدها .

وأما النقطة الأولى وهى التى تتصل بالعلاقة بين النثر القرآنى وبين أساليب الجاهليين وطرق تعبيرهم ، فلا أدرى لماذا نقحم القرآن فى هذه القضية ، والمسلمون جميعاً ـ كما يقول الدكتور زكى مبارك نفسه ـ مجمعون على إعجازه، والقرآن نفسه قد تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة منه ، فكيف يمكن أن يعطينا القرآن صورة عن النثر الجاهلي، وهو النثر الذى وقف عاجزاً عن مواجهة القرآن أو النهوض قريباً إلى مستواه . وبذلك فالقرآن لا يعطينا

---

(١) نفس المرجع ص ٤٤ ـ ٤٥ ، ص ٥٥ .